

ابن المرأة الأندلسي

وجهوده في التصوف وعلم الكلام

أ-زوهري وليد

أستاذ مساعد-أ-

جامعة المدية-الجزائر

يسلط هذا البحث الضوء على جهود واحد من أعلام التصوف الأندلسي العاملين، الذين لم يلقوا العناية الجديرة بهم بسبب الانحصار في دائرة بعض المتصوفة التقليديين الذين كثر الاهتمام بهم، وتشعبت حولهم الدراسات والابحاث، مساهمة منا في تجلية هذه الشخصية العلمية والتعريف بمكانتها في تنشيط الحركة الثقافية الإسلامية في الأندلس، واستقراء أقوالها في أهم مسائل العقيدة والتصوف، والتوصل من خلال ذلك إلى تحديد مذهبها الاعتقادي وقد ظهر أنها آخذة بطريقة مستقلة، متوسطة بين المتكلمين والصوفية الفلاسفة، مع ميل إلى أقوال الأشاعرة. هو المفسر الصوفي المتكلم: ابن

المرأة الدهاق

**The study trace back the overall efforts of one of the most influential Sufi Esoteric philosophers in Muslim Spain, of 6 th and 7 th century(Hijri)-Ibn Al Maraa Al Dahhaq -who dies in 616 Hijri, the essence of his Sufi teachings was the search of unity between the Individual and the godhead often by way of an ecstatic experience, Hence Ibn al dahhaq famous outcry by his extreme Sufi conduct which the non -Sufi Muslims considered blasphemous.**

الكلمات المفتاحية: التصوف- علم الكلام-الحياة الفكرية- الأندلس-الفقه

## Key words: Sufism- speculative theology-Intellectual life-Al Andalus-Islamic jurisprudence

نالت علوم الشريعة عند أهل الأندلس والمغرب العناية الفائقة والتقدير الفريد، حيث كانت الجدوة التي أشعلت فتيل نهضة حضارية راقية ، فلمع نجم أساطين من علماء الفقه والأصول والتفسير والحديث والتصوف وعلم الكلام .

يسلط هذا البحث الضوء على جهود واحد من أهم أعلام الأندلس، مساهمة منا في التعريف بسيرته ومؤلفاته ، صاحب هذه الشخصية - وإن لم ينل حقه من البحث والدراسة - فقد كان له أثر واضح في عديد جوانب حياة الأندلسيين الفكرية ، هو المفسر والصوفي المتكلم :ابن المرأة الأوسى الأندلسي.

لقد قسمت البحث إلى مطلبين اثنين، تحدثت في الأول منهما عن سيرة ابن المرأة الذاتية ونشأته العلمية، مع توضيح ذلك بالحديث عن أحوال عصره ، وبيان أثره في الحياة العامة، ثم استعرضت شيوخه وأقرانه وتلامذته ، و في القسم الثاني قمت بدراسة جهوده وآثاره العلمية، مبتدئاً بالحديث عن جهوده في مجال الدعوة والتدريس،، وأركز على جهوده في مجال التصوف وعلم الكلام، و قراءة في مصنفه شرح محاسن المجالس.

### سيرته:

هو: ابراهيم بن يوسف بن محمد بن الدهاق الأوسى المالكي يكنى بأبي إسحاق ويعرف بابن المرأة<sup>1</sup> من أهل مالقة ، حيث عاش فيها دهرا طويلا ثم انتقل إلى مرسية باستدعاء المحدث أبي الفضل المرسي والقاضي أبي بكر بن محرز، زار العديد من البلدان أهمها تلمسان حيث التقى شيخه الشوزي الحلوي في إحدى الزيارات العائلية<sup>2</sup> وموت الشوزي انتقل ابن المرأة إلى مرسية تسبقه شهرته في علم الكلام والتصوف

كانت وفاته رحمه الله في سنة 616هـ ذكر ابن الأثير في تكملة الصلة أن وفاته كانت عام 611هـ

هو فقيه مالكي حافظ ذاك للحديث والتفسير والأدب والتصوف غلب عليه علم الكلام.

كان في مالقة يتاجر في سوق الغزل، وكان صاحب حيل ونوادير يلهي بها أصحابه ويؤنسهم ،حسن الفهامة والمعاشرة ،شاهد منه

بعض العلماء ما يخالف الشرع فنافروه وباعدوه، كان يستطيع أشياء غريبة من الخواص وغيرها وبذلك فتن الجهلة<sup>3</sup>

أتى علم التصوف من باب علم الكلام فعكف على شرح مؤلفات الأشاعرة تحت رعاية السلطة الموحدية ، ولعل أهم كتاب للمذهب الأشعري هو الإرشاد لأبي المعالي إمام الحرمين الجويني (ت478هـ-1085م)<sup>4</sup> ، كما ظهرت له شروح كثيرة كان لها دور كبير في رسوخ العقيدة الأشعرية بالمغرب والأندلس، حيث مثل سلطة مرجعية قوية لمجموع ما ظهر من المتون الأشعرية ومؤلفات شارحة أو ناظمة لمبادئ هذه العقيدة<sup>5</sup> ولابن المرآة أيضا شرح أسماء الله الحسنى وكتاب في إجماع الفقهاء فرغ منه عام 610هـ وشرح محاسن المجالس لابن العريف وهو موضع بحثنا، والملاحظ أن طابع التصوف باد في هذا الكتاب بصورة واضحة، ولكن له من العناية بتحقيق المسائل الكلامية الحظ الأوفر.

### شيوخه:

لا شك أن ابن المرآة قد أخذ عن عدد من علماء عصره، وقد أشار إلى ذلك أصحاب التراجم والتواريخ، ومنهم:  
- أبو الحسن علي بن إسماعيل بن محمد بن عبد الله بن حرزهم<sup>6</sup> يرتفع نسبه إلى عثمان بن عفان رضي الله عنه، ولد ونشأ بفاس وكان من كبار زهادها كان أبوه من كبار الصالحين وكذلك أخوه وعمه، توفي أواخر شعبان عام 559هـ ودفن بفاس يتردد على زيارته الناس حتى اليوم لأجل بركاته ، مشارك في علوم الشريعة ولكنه إلى علم التصوف والتحقيق أميل ، كانت له صحبة مع أبي الحكم بن برجان<sup>7</sup> فنأدى الناس بتكريمه وشهود جنازته بعدما أمر السلطان علي بن يوسف بن تاشفين<sup>8</sup> برمييه في المزبلة .  
- عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله الأنصاري أبو القاسم بن حبيش<sup>9</sup> عالم بالعربية والقراءات، بارع في النحو، من أهل المرية ولد عام 504هـ ولي القضاء بجزيرة شقر ثم بمرسية عن سن عالية حيث توفي عام 584هـ كان الناس يهلكون من الزحمة على قبره له "المغازي" .

- أبو عبد الله الشوذري الإشبيلي التلمساني المعروف بالحلوي<sup>10</sup> إمام العارفين وسيد الصالحين نزيل تلمسان نسبت له التصرفات الغريبة ، كان قاضيا بإشبيلية ثم أثر ترك مهنته وبلده من أجل التصوف متجها إلى تلمسان مبشرا به متخذًا الغناء والإنشاد سبيلا لذلك ، كما انصرف إلى تعليم الحديث والتفسير الذوقي للقرآن الكريم توفي الشوذري مع مطلع القرن السابع الهجري تاركا في تلمسان أكثر من مريد . تحدث ابن المرآة عن لقائه ابن المرآة بالشيخ الشوذري : "فخرجت إليه من الغد فوجدته جالسا بالمسجد لوعدي، فسلمت عليه وجلست بين يديه، فقال: ما الذي تريد قراءته؟، فقلت: ما ألهمك الله إليه. قال: اقرأ كتاب الله العزيز أولا فهو أحق أن يفتتح به، فتعوذت بالله من الشيطان الرجيم وقرأت بسم الله الرحمن الرحيم فتكلم في فضلها عشرة أيام، ثم قرأت عليه

حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم شيئاً من الأدب، قال المخبر عنه فكل ما تسمعونه من أدب مني فمنه استفدته وعنه أخذته في مدة حولين كاملين"<sup>11</sup>

#### تلاميذه:

- أبو محمد عبد الحق بن برطلة الأزدي<sup>12</sup> من أهل مرسية عالم في الفقه والحديث ولد سنة 580هـ وتوفي بتونس العام 661هـ كانت جنازته مشهودة .

- أبو عبد الله محمد بن أحلى<sup>13</sup> انتقل من الدراسة والعلم إلى الرساية حيث أصبح من أمراء الأندلس بلورقة قاوم الأسباب عند دخولهم مرسية عام 640هـ ، كان كأستاذه يمزج التصوف بعلم الكلام له أشعار كثيرة تبرز معتقده اختار ابن الأبار أجملها مورداً إيها في "الحلة السيرة" ، وقد ذكر ابن الخطيب في "روضة التعريف" أن ابن أحلى من جملة أساتذة ابن سبعين<sup>14</sup>. والظاهر أن ابن سبعين لم يتلمذ على ابن دهاق بالأخذ عنه مباشرة لأن ابن سبعين ولد سنة (614هـ) وكانت وفاة ابن دهاق سنة (611هـ)، ويبدو أن ما ذكره المترجمون لابن سبعين عن أخذه عن ابن دهاق، يعني تتلمذه على كتبه، أو أخذه عن بعض تلاميذ ابن دهاق كابن أحلى، إذ يذكر الفاسي في "العقد الثمين" أن ما ظهر به ابن سبعين مأخوذ من عقيدة ابن دهاق وابن أحلى<sup>15</sup>

#### بيئته العلمية:

تأثر ابن المرآة بأجواء الحركة الصوفية المحددة التي عرفها الأندلس نهاية العصر المرابطي وحتى قيام الدعوة التومرتية وظهور أعلام كبار أمثال الشوزي وابن قسي<sup>13</sup> وابن برجان وابن العريف<sup>16</sup> فغداً- وبكل ما كان يتبناه من اتجاه صوفي كلامي - حلقة من الحلقات المفصلية الفاعلة في نشوء التيار المناهض للآراء الفقهية المالكية التقليدية ، حيث رمي علماء المرابطين بالشرك والتجسيم لتمسكهم بظاهر الآيات المتشابهات، وحُمل المغاربة على الالتفاف بمذهب التوحيد الكلامي و العلوم العقلية وقد صور ابن بطلموس دور المهدي في عناية أهل المغرب والأندلس بعلم المنطق ضمن دوره في نشر فكر الغزالي ( ثم لم تكن الأيام الا قليلا وجاء الله بالمهدي رضي الله عنه فبان به للناس ما كانوا قد تحيروا فيه وندب الناس في قراءة كتب الغزالي وعرف مذهبه أنه يوافق فأخذ الناس في قراءتها واعجبوا بما رأوا فيها من جودة النظام والترتيب الذي لم روا مثله قط في تأليف، ولم يبق في هذه الجهات من لم يغلب عليه حب كتب الغزالي الا من غلب عليه افراط الجمود من غلاة المقلدين)<sup>17</sup> وظل يقاومهم حتى سقطت الدولة المرابطية وقامت الدولة الموحدية تحمل مذهباً كلامياً جديداً ، وكان جل ما يدعو إليه علم الاعتقاد على طريق الأشعرية. وإن كانت كتب الأشاعرة في علم الكلام معروفة بين رجالها يتدارسونها في كافة أنحاء المغرب والأندلس<sup>18</sup>

وفي مرسية بجوامعها وزواياها ظهر اتجاه جديد يعرف بالشوذية نسبة إلى أبي عبد الله الشوذي الحلوي التلمساني الذي نقله ابن المرآة إلى مرسية تسبقه شهرته في علم الكلام والتصوف فاشتغل عليه أهلها بعلم الكلام و"جاهر بمذهب ابتداء لم يسبق إليه"<sup>19</sup> فترأس فيه واشتهر به ولم يزل بمرسية يناظر عَليّه ويُحَلِّقُ إليه إلى أن تُوفي بها في صدر سنة إحدَى عشرة وستمائة<sup>20</sup> ومثله كان الإمام شرف الدين أبو الفضل السلمي المرسى<sup>21</sup> وهو من أكثر من نشر هذه الطريقة، ثم اشتهر من بعده من أصحاب ابن المرآة وغير أصحابه أعداد في بلدان شتى، وكان أبو عبد الله ابن أحلى قد لزم بمرسية بن الدهاق يحدثه حوله فأصبح من أكثر المتكلمين الداعين إلى الاعتقاد الشوذي الناصر له<sup>22</sup> وزاد انتشار هذا المذهب وكثر أتباعه فيه من أهل بلده، ومنهم أيضا عبد الحق بن سبعين المتأثر بسابقه<sup>23</sup> فقد أخبرنا ابن الخطيب أن ابن أحلى من جملة أساتذة ابن سبعين ويقول بدر ابن جماعة ولا شك أن هذا الذي ظهر به ابن سبعين هو مسترق من عقيدة بن المرآة وابن أحلى وأتباعه إذ كانوا كلهم اشتغلوا بمرسية<sup>24</sup>

انتشر في المدينة جمع من العلماء والفقهاء فقد كانت تروج بحركة علمية زاهرة وأهلها يحبون العلم حبا جمًّا، قال أبو عمر الطلمنكي: دخلت مرسية، فتشبت بي أهلها يسمعون علي الغريب المصنف<sup>25</sup> كما انتشرت فيها حلقات العلم التي يتصدرها أئمة أعلام، ويقصدها طلاب العلم ومحبو الثقافة والمعرفة" فقد كانت حاضرة شرق الأندلس، وأهلها من الصرامة والإباء ما هو معروف مشهور<sup>26</sup> نافست مدن الأندلس والمغرب أمهات المدن الإسلامية، حتى جذبت مساجدها الأوروبيين الذين وفدوا لارتشاف العلم من مناهله والتزود من الثقافة الإسلامية، فقد بذل أمراء الأندلس جهدهم في إحياء العلم وإطلاق حرية التعبير والبحث وتوجيه كبير عنايتهم برجال الأدب والفن والتربية<sup>27</sup>، فأخرجت البلاد سادة الفقهاء المحدثين وكبار الفلاسفة والأطباء

لقد أصبحت الأشعرية المذهب الرسمي للدولة فقد أتى ابن تومرت إلى السلطة بأشعرية عميقة تلقاها من الغزالي، واتخذها مطية سياسية لتثبيت الحكم الموحد، فظعن على أهل المغرب إمرارهم المتشابهات كما جاءت، وحملهم على القول بالتأويل والأخذ بمذاهب الأشعرية في كافة العقائد، وأعلن إمامتهم ووجوب تقليدهم<sup>28</sup>. يقول ابن خلدون: «وكان قد لقي بالمشرق أئمة الأشعرية من أهل السنة وأخذ عنهم واستحسن طريقتهم في الانتصار للعقائد السلفية والذب عنها بالحجج العقلية الدامغة في صدر أهل البدعة، وذهب إلى رأيهم في تأويل المتشابه من الآيات والأحاديث، بعد أن كان أهل المغرب بمعزل عن اتباعهم في التأويل والأخذ برأيهم فيه اقتداء بالسلف في ترك التأويل وإقرار المتشابهات كما جاءت، فظن أهل المغرب لذلك، وحملهم على القول بالتأويل والأخذ بالتوحيد<sup>29</sup>»

غير أن هذا التوجه في حركة ابن تومرت لم ينفصل عن أهدافه السياسية المعلنة بشكل بارز، فنراه يتذبذب في مواقفه بين خليط من الأفكار والمفاهيم ذات امتداد شيعي أو ظاهري أو معتزلي في بعض الأحيان، وهو أمر لفت انتباه المؤرخين. يقول المراكشي: «وكان على

مذهب أبي الحسن الأشعري في أكثر المسائل، إلا في إثبات الصفات فإنه وافق المعتزلة في نفيها وفي مسائل قليلة غيرها، وكان يبطن شيئاً من التشيع غير أنه لم يظهر منه إلى العامة شيئاً<sup>30</sup>. «فعلى الرغم من تشبعه بأفكار كبار الأشاعرة كالأهاسي والغزالي والطرطوشي، إلا أنه لم يكن أشعرياً خالصاً، حيث نجده يدعو إلى فكرة المهودية الشيعية والعصمة، مما حدا ببعض الأشاعرة المتأخرين وهو الفقيه أبو الحسن علي اليوسي إلى الحكم عليه بالضلال<sup>31</sup>، وعلى العموم فالظاهر أن مشكلة المذهب الفقهي لم تعد مطروحة كما كان الأمر عليه في عصر المرابطين فالمذهب المالكي زاحمه المذهب الحزمي الظاهري<sup>32</sup>، والآراء الصوفية الكلامية، وفي علاقة المهدي بن تومرت بالفقه المالكي تضاربت الآراء في تحقيقها، فبينما يذهب البعض إلى القول بمالكية ابن تومرت، وأنه كان معجباً بالمذهب المالكي مفتتناً به، إلا أنه كان بمقت علماء المرابطين، فرماهم بالجهل والطغيان والتجسيم والكفر ولذلك هاجم سلفية الإمام مالك في التوحيد ولم يهاجمها علانية في الفقه<sup>33</sup>، وكان يسبح في خصم المالكية<sup>34</sup> في حين ذهب البعض الآخر إلى التشكيك في مالكية ابن تومرت، وأنه كان يهدف من وراء دعوته في التوحيد إلى محو مذهب مالك من المغرب وحمل الناس على الظاهر من الكتاب والسنة<sup>35</sup>، وأن مسألة الظاهرية ليست آتية من عبد المومن ثم يوسف فقط، وإنما منشؤها الأصلي من ابن تومرت<sup>36</sup>

يمكننا القول أن البيئة الثقافية التي تترعرع فيها ابن المرأة كانت مشجعة نسبياً<sup>37</sup> على نمو هذا الاتجاه الصوفي المجدد المازج بين الآراء الصوفية والكلامية .

## جهوده العلمية:

### في مجال التدريس والتوجيه:

لم تسعفنا كتب التراجم والطبقات في رسم صورة واضحة لنشاط ابن المرأة الدعوي ، إلا أننا لا نشك أن له باع طويلاً في الميدان ، فهو سليل المدرسة المسرية التي ينتمي إليها ابن عربي<sup>38</sup> وابن سبعين<sup>39</sup> والششتري<sup>40</sup> التي كان لها تأثير على المدرسة الشاذلية وخاصة عند بن عباد الرندي<sup>41</sup> وأما في مجال التدريس فلا شك في أن ابن المرأة كان له جهد في هذا الميدان أيضاً، فقد ذكر في كتب التراجم بعض ممن تلقى العلم عنه من الأعلام ذوي المقام الرفيع اللذين حملوا عنه التفسير الذوقي للقرآن والعقيدة الأشعرية .

### جهوده في الفقه:

إن التلازم بين الفقه المالكي والعقيدة الأشعرية سمة من سمات المالكية بالغرب الإسلامي الموحدية فقد تشبث المغاربة والاندلسيون

منذ زمن الموحدين بالعقيدة الأشعرية حتى أضحت ثابتاً من ثوابتهم الدينية ومقوماً من مقوماتهم الفكرية

أسهمت الأشعرية رفقة المذهب المالكي والتصوف في خلق انسجام مذهبي وعقدي في المغرب والأندلس جنبهما كثيرا من القلاقل والفتن التي كانت تدور رحاها في مناطق مختلفة من العالم الإسلامي .

على الرغم من ميل ابن المرأة لعلم الكلام والتصوف إلا أن اهتمامه بالفقه كان بارزا أيضا بمؤلفه الضخم والذي يقع في خمسة مجلدات وهو شرح الإرشاد لأبي المعالي<sup>42</sup> والذي يعد أهم ما خطه المؤلف، إضافة إلى كتاب إجماع الفقهاء.

## جهوده في التصوف:

يعد ابن المرأة صاحب زهد وعبادة وسلوك عملي، ينتمي لمدرسة بن مسرة الاستشرارية التي تقول بوحدة الوجود ، فالموجودات حسبهم هي مجرد تجل حقيقة إلهية واحدة بل إن الكون والوجود كله هما مجرد تجليات أو صور تتنوع ، وماهي في الحقيقة سوى أشباح اتصفت بصفة الوجود بسبب سيريان الروح الإلهية فيها<sup>43</sup> وان كان بعض المتصوفة من أتباع هذه المدرسة أمثال ابن سبعين الذي لم يقل إلا بالوحدة المطلقة ، فإن ابن المرأة قد أفسح مجالاً في مذهبه للوجود المقيد فيقول: «فالعقل هو الحاكم العادل بين الوجودين وجود مطلق، ووجود مقيد وهي الفطرة التي فطر الناس عليها»<sup>44</sup>

تعد هذه القضية- وحدة الوجود- أصل مذهب ابن المرأة وعنها تتفرع مختلف المسائل ،فالحقيقة الوجودية واحدة في جوهرها متكررة بصفات وأسمائها لا تعدد فيها إلا بالاعتبارات، ومن لم يصل إلى الوجدانية لم يصل إلى حقيقة الوحدة التي هي ساحل بحر الأحدية، من أجل ذلك فالصوفي في سفر مستمر إلى الآخرة ،هو غريب على الدوام ينتقل من حال إلى حال ومن مقام إلى مقام «العارف إنما يرتقي من العمل إلى الحال حتى يكون همه وهمته الوصول لا يلحظ ثوابا ولا غيره ليس له شغل إلا الذكر فما دام يذكر ويرى أنه ذاكر فهو مع نفسه لم يصل بعد من حيث فرق فجعل ذاكرا ومذكورا فهو محجوب بذكره فإذا فني عن نفسه وغاب عن ذكره فقد وصل فكان الله هو الذاكر وهو المذكور»<sup>45</sup> ومن خلال هذه الأحوال والتجارب يلج العوالم الخفية وتخوض روحه اللطيفة رحلات العودة إلى العالم الطاهر بعد أن كان في عالم الوهم فالدنيا بمثابة منام مستمر «والعالم كله ظل للوجود الحقيقي للذات الإلهية»<sup>46</sup>

## 1-الفناء والبقاء:

إن التصوف علم لا يظفر به إلا من يلج بحار المجاهدات، ولا يصل إلى ساحله إلا من تحمل المشاق والمكابدات و سلك طريق المجاهدة للوصول إلى مكاشفة الأسرار، ومشاهدة الأنوار والدخول في عالم الفناء والبقاء وصولاً إلى القطبية،ومن وصلها فهو

من زمرة العارفين حيث « ارتقت هممهم من العمل إلى الحال ، فتراهم لا يظهر لهم كبير عمل وهم مع الله لا يشتغلون بغيره. وذلك أن أعمالهم قلت في الظاهر إلا عن الواجب فصارت أعمالهم قلبية »<sup>47</sup>

إن غاية ابن المرأة من ولوج درب التصوف هو الوصول إلى حقيقة التوحيد المتمثلة عنده في مقام الفناء ولكي يحقق الصوفي فناءه الذاتي لابد من تحققة أولاً بالفناء الأخلاقي ولا يحصل ذلك بتبديل الأخلاق فقط بل بتصفية القلب والتوجه إلى الحق والزهد في الدنيا ، فإذا تحقّق العبد بالتوبة والزهد ، ودوام العمل لله وصل إلى مقام ترك التدبير والاختيار ثم يصل إلى أن يملك الاختيار فيكون اختياره من اختيار الله لزوال هواه وانقطاع مادة الجهل عن باطنه و العبد لا يتحقق بهذا المقام العالي وهو امتلاك الاختيار بعد ترك التدبير والخروج من الاختيار وهو مقام الفناء وتمليك التدبير والاختيار من الله ، ورده إلى الاختيار تصرف بالحق وهو مقام البقاء مقام الغاية والنهاية «فلا يزال يقطع العلائق ، حتى يُخبر عن الله ويُخبر عن خبّره فإذا انتهى هنا لا يبقى له من المخبرات إلا خبّره عن خبّره المرتبط بالله فخبّره عن الله مُخبر خبّره وهو غير الله ولا يصح له مع وجوده الفناء فإذا أخبر عن الله ولم يُخبر عن خبّره كان الفناء وتحقق وكان هو المخبر والمخبر ولم يبق للعبد أثر يردده عليه ثم يرجع من حيث ابتداء كذلك حتى ينتهي ليصير له ذلك ديدنا»<sup>48</sup>

يلاحظ انصواء الفناء والبقاء في تجربة بن المرأة الصوفية تحت مصطلح الذكر، حيث يرد الفناء فيه بمعنى التخلص من الفردية المقيّدة ليتحقق القرب المباشر مع الله سبحانه ، ويرد البقاء بمعنى اكتساب الصوفي لأعمق شعور وأوسع معرفة وأثبت إحساس بحضرة الله سبحانه، فالإقبال على ملازمة الذكر والأوراد ينتج التحقق بمقام التوبة والزهد وغيرها من المقامات، فلا بد للصوفي من ذلك ليثبت قدميه في طريق الله تعالى « رقاها من العمل إلى التخلق فاصطفاه وشغله بذكره ولا يزال يدع وذكره حتى يغلبه ذكره فإذا غلبه الذكر فنى عن ذكره اصطلمه فإذا اصطلمه صار كأن ما لم يكن وبقي من لم يزل »<sup>49</sup>

## 2- العلم والإرادة:

تقوم نظرية ابن المرأة في مبدأ المسؤولية والجزاء أن العلم تابع للمعلوم، العلم مظهر للمعلوم، لارتباطه به كالسبب على المغيب وقد أتى بمثال السرقة حيث أن حدّ قطع اليد لا يقع إلا إذا « تقرر السبب فهو المظهر للفعل ، وكذلك نقول في العلم هو المظهر للمعلوم فإذا أراد الله أن يظهر للعبد معلوما جعل عنده علما فتعلق بذلك المعلوم فعلمه»<sup>50</sup>

ترتب عن هذا الكلام أن العقل قاض ومسؤول عن أفعاله لارتباطه بالعلم والإرادة الإنسانية، وعلم الله تعالى تابع لما يعطيه الجوهر الأول، بما هو عليه من الاستعداد والجوهر الأول لا يرتبط بالمتوهم وهو الزمان والمكان الذي هو سمة عالم الشهود فإذا انتفى

الزمان والمكان أصبح العالم بأسره مُدركاً للبارئ جل جلاله«فإذا صدر الفعل بالقصد كتب له أو عليه فمن تدبر هذا وعقله وأعطى كل ذي حق حقه وعلم معنى الربوبية ومعنى الرسالة والعبودية»<sup>51</sup>

ينطلق بن المرأة بتحديد المسؤولية الإنسانية بالتفريق بين نوعين من الأمر : الأمر التكليفي، وهو الذي يخاطب به الله عباده فيطيعونه أو يعصونه على حسب ماكان مقدرًا في الأزل، والأمر الواجب الجبري وهو الأمر المنفذ للإرادة الإلهية المطلقة . كما تناول ابن المرأة من خلال مؤلفه قضايا عديدة من بينها السماع، وقد أكد المؤلف مشروعيته عند أغلب الصوفية ولو أنهم يختلفون في تفاصيله، فمن شأنه أن يفتح لهم أمور عجيبة وغريبة من الأسرار والمواهب والمنح والعطايا منها شهود الجمال والإطلاع على الخفايا، والسماع في حق المريد خلال ابتدائه نافع معالج ، لا سيما إذا لم يقارنه صحبة الأشرار ، إلا أن قوة السماع تكون عند عدم المشاهدة فإذا حصلت ، اضمحلت ولاية السمع<sup>52</sup>

كان من الضروري أن يؤدي مذهب ابن المرأة الصريح في وحدة الوجود إلى نتائج لها تأثير في ميدان التكليف الشرعي فنظريته بتجاوز العلم اللدني مظاهر الشريعة جعلته ينصح المبتدئين أو كما سماهم "المتوسطين المتلونين" بضرورة الصحبة والمحافظة على مظاهر الشريعة والتحلي بخلايق الورع إلى أن يرزقهم الله كمال مرتبة البالغين<sup>53</sup> فكما تُحمل النصوص على ظواهرها فإن فيها إشارات خفية ودقائق تنكشف لأرباب المجاهدات ولذلك قيل أن القرآن نَزَلَ وَتَنَزَّلَ، فالنزل قد مضى، والتنزُّل باق إلى يوم القيامة، أي تنزل على قلوب أوليائه بما يليهمهم إياه في أوقات صفاء قلوبهم، ويفهمهم معناه إذا احتلوا بمحبوهم.

### جهوده في علم الكلام:

-قوله أن الله يسري في كل موجوداته ويسكن قلوب العارفين «فمعرفة محجة العارفين بما أشرفوا على كل طريق يوصل إليه وبها ظهرت لهم الأشياء فعليك بملازمة من هو اقرب إليك من حبل الوريد»<sup>54</sup>

-فأما في مسألة إثبات وجود الله تعالى فينهج ابن المرأة مذهباً يجمع بين مذهب أهل علم الكلام القائلين بأن معرفته تعالى استدلال و ببيان للبراهين العقلية الدالة على ثبوت وجوده تعالى ، وبين مذهب أهل التصوف القائلين بأن معرفته أمر ذوقي عرفاني فالاستدلال أصل إدراك وجوده لدى عامة الناس وينفرد العارفون بالإدراك الذوقي النابع عن زيادة المحبة<sup>55</sup>

-أما موقفه من صفاته تعالى فإنه يبدو سائر على طريقة تكاد تطابق ما اتفق عليه أكثر الأشاعرة فالله سبحانه وتعالى الواحد الأحد الذي دل العباد على وحدانيته وتفردته في صفاته بما أقام في ماخلقه من دلائل ذلك .

-وهو واجب الوجود من صفاته البقاء، ومعنى كونه واجب الوجود أنه ألزم الموجودات معرفة وجوده بأن قهرها على تحقق الوجود لها بإيجاده إياه<sup>56</sup>

-وهو سبحانه متصف بالأولية والقدم كان الله عز وجل ولم يكن شيء قبله ولا موجود سواه مع صفاته تعالى على ما يليق بجلاله، وهي بذلك مخالفة لصفات الحوادث المخلوقين<sup>57</sup>

-لا يجد سبحانه بالمكان والزمان فهو سبحانه خالق المكان والزمان لا يوصف بالأين لأن الأين مخلوق، والذي أين الأين خالق. وأين يبحث بما عن مكان، وكان الله جل جلاله ولا مكان، وهو الآن على ما لم يزل. وكذلك تبارك وتعالى لا يجري عليه متى، لأن متى باحثة عن زمان، والذي أوجد الزمان لا يفتقر إلى زمان<sup>58</sup>

وختاماً أرجو أني قد وصلت إلى ما يخدم مرامي، بتسليط الضوء على بعض الجوانب من التجربة العلمية والصوفية لابن المرآة الاندلسي، ودراسة شخصيته وما خلفه من الآثار المميّزة، التي مازال الكثير منها مخطوطاً، بحاجة لمن يقوم بدراسته وتحقيقه ونشره، فإني أرجو الله تعالى أن يوفقي الى متابعة ما بدأت بتحقيق كتاب شرح محاسن المجالس.

## الهوامش والإحالات:

- <sup>1</sup> - تكملة الصلة لابن الأبار، ج1، المطبعة الشرقية برعاية أبي شنب، الجزائر 1919، ص:200، الإحاطة في أخبار غرناطة لابن الخطيب: ج1، تحقيق محمد عبد الله عنان مكتبة الخانجي القاهرة، ط2، القاهرة 1973، ص:325-326، الديباج المذهب لابن فرحون، تحقيق مأمون بن محي الدين الجنان، دار الكتب العلمية بيروت لبنان، ط1996، ج1، ص:147، الوافي بالوفيات للصفدي، ج6 تحقيق احمد ارناؤوط وتركي مصطفى، دار الاحياء للتراث العربي بيروت ط2000، ج1، ص:110، شجرة النور الزكية ج1، محمد بن محمد بن مخلوف المطبعة السلفية ومكنتبها القاهرة 1349هـ:ص173، معجم المصنفين للتونكي، ج4، مطبعة ورنكو غراف طبارة سوريا، 1344هـ، ص:491، مقدمة جورج كتورة لكتاب بد العرف، لابن سبعين، دار الأندلس، ط1، بيروت 1981، ص:19
- <sup>2</sup> - كان في زيارة لعمته القاطنة بمدينة تلمسان، البستان لابن مريم المطبعة الثعالبية، الجزائر 1908، ص:68
- <sup>3</sup> - العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، ص:330
- <sup>4</sup> - سير النبلاء للذهبي، ج15، جار المعارف، بيروت، 1969، ص:123، الأعلام للزركلي، ج4، دار العلم للملايين، ط2002، 15، بيروت لبنان، ص:160

<sup>5</sup> - تطور المذهب الأشعري ليوسف أحنانة، مطبعة البديني، الرباط، 2003، ص:87

- <sup>6</sup> - التشوف إلى رجال أهل التصوف لابن الزيات، تحقيق احمد توفيق، منشورات كلية الآداب مطبعة النجاح الجديدة الدار البيضاء 1997م، ص:123، انس الفقير لابن قنفذ القسنطيني اعنتى به محمد الفاسي وادولف فور، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي مطبعو أكادال، بط، الرباط 1965، ص:12، نيل الابتهاج لأحمد بابا التبتكي، ج1 تحقيق عبد الحميد عبد الله الهرامة منشورات كلية الدعوة الإسلامية طرابلس 1989، ص:309، سلوة الأنفاس لمحمد بت جعفر الكتاني ج3، الهيئة العامة لدار الكتب القومية 1989م، ص71 شجرة النور الزكية: ج1/163، النبوغ المغربي لعبد الله كنون ج1، ط2، ص90

- 7 - سير أعلام النبلاء 72/20، تكملة الصلة: 21/3، نفح الطيب للمقري التلمساني، ج2، دار الفكر الإسلامي الحديث، 1998، ص: 155، شجرة النور الزكية 1/132
- 8 - فهرس الفهارس عبد الحي بن عبد الكبير الكتاني، عناية إحسان عباس، ج1، دار الغرب الإسلامي بيروت، ط2، 1982، ص: 802
- 9 - بغية الوعاة للسيوطي، ج1، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، ط2004، ص: 1، ص: 572، غابة النهاية لابن الجزري، ج1، دار الكتب العلمية، بيروت 2006، ص: 370، الأعلام للزركلي 3/328
- 10 - البستان: 68،
- 1-revue africaine. journal de la société historique algérienne par les membres de la société sous la direction du président , jourdan, libraire-éditeur 1859 alger p; 213
- 11 - البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان لابن مريم، تحقيق محمد بن يوسف القاضي، مكتبة الثقافة الدينية، الطبعة الأولى 1431هـ/2010م، ص: 86
- 12 - شجرة النور الزكية، ج1: 196
- 13 - الحلة السيرة لابن الأبار، ج2، تحقيق حسين مؤنس، دار المعرف، ط2، القاهرة، 1985، ص: 214-217، روضة التعريف بالحب الشريف لابن الخطيب، تحقيق عبد القادر محمد عطا، دار الفكر العربي، ص: 213 الأعلام 6/282
- 14 - سير أعلام النبلاء 7/573، عنوان الدراية للغبريني، تحقيق رباح بونار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر، 1989، ص: 209، نفح الطيب 2/196، شجرة النور الزكية 1/196، تاريخ الفكر الأندلسي لأنخل غانزلس فالنسيا ترجمة حسين مؤنس، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ص: 387
- 15 - المدرسة الشاذلية في التصوف الأندلسي، أبو الفا الغنيمي التفتازاني، مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية مدريد، السنة 1985 - العدد: 23 (ص: 175-176)
- 16 - الصلة لابن بشكوال، دار الكتب المصرية، إخراج دار إحياء التراث القاهرة، ص: 466، تاريخ اسبانيا لابن الخطيب، تحقيق ليفي بروفنسال، دار المكشوف، ط2، بيروت لبنان، 1956، ص: 248-254، نفح الطيب 6/305، تاريخ الفكر الأندلسي: 248
- 17 - المدخل الى صناعة المنطق ابن بطليموس: 09
- 18 - الصلة لابن بشكوال: 465، التشوف: 118، نفح الطيب 2/77، تاريخ الفكر الأندلسي: 369
- 19 - العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، ص: 330
- 20 - التكملة لكتاب الصلة ج1، ص: 140
- 21 - علم بارع مفسر صنف تفسيراً ضخماً توفي 655هـ، التكملة لكتاب الصلة لابن الأبار 2/636، الوافي بالوفيات: 3/354
- 22 - الذيل والتكملة ج6، ص: 336
- 23 - يقول ابو حيان عن جماعتهم وما زال بن سبعين مشردا في البلاد ينفي من بلد إلى بلد وأصحابه مذمومون مبغوضون.. "العقد الثمين: ص: 229
- 24 - القول منبني عن ترجمة ابن العربي للسخاوي ج2، ص: 290، العقد الثمين في تاريخ البلد الامين ص: 329
- 25 - نفح الطيب 3/379-380، نكت العميان الصفدي، مجلد 1 : ، صفحة 188 :
- 26 - نفح الطيب 2/220-221
- 27 - مقدمة تحقيق كتاب " ترتيب المدارك " للقااضي عياض دار الكتب العلمية بيروت 1998، ص: 13
- الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية لابن الخطيب، مطبعة التقدم، 1911، ص: 154
- 28 - الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية لابن الخطيب، مطبعة التقدم، 1911، ص: 154
- 29 - العبر لابن خلدون، ج6، تحقيق عادل بن سعد، دار الكتب العلمية، لبنان 2006، ص: 464-466 .
- 30 - المعجب في تلخيص أخبار المغرب عبد الواحد المراكشي المكتبة العصرية للطباعة والنشر 2006، ص. 56-57.
- 31 - نشر المثاني للقادري، دار الطالب الرباط 1977 ج 1، ص. 374.
- 32 - سير أعلام النبلاء 18/184-213، الصلة لابن بشكوال: 366-367 نفح الطيب 2/290
- 33 - الدعوة الموحدية بالمغرب، لعبد الله علام دار المعرفة القاهرة 1964 ص: 304
- 34 - مقدمة تحقيق " أعز ما يطلب"، عبد الغني أبو العزم، مؤسسة الغنى للنشر المغرب، 1997 ص: 29 .
- 35 - الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي، محمد الحجوي الثعالبي دار الكتب العلمية 1995 ج2، ص. 171 .
- 36 - العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين، محمد المنوني المطبعة المعدة الرباط 1950 ص. 51 .

- 
- 37 - قال ابن الخطيب في مجمل ترجمته لابن المرأة أن الناس ابتعدوا عنه لما تعلموا أصول مذهبه الاستسراري ومنهم القاضي أبو بكر بن المرابط .
- 38 - عنوان الدراية: 209، نفح الطيب 196/2، شجرة النور 196/1
- 39 - عنوان الدراية: 160، أنس الفقير: 35، نفح الطيب 162/2
- 40 - عنوان الدراية: 210، نفح الطيب 185/2، شجرة النور 196/1
- 41 - أنس الفقير: 80، تاريخ الفكر الأندلسي: 390
- 42 - هناك نسخة من المخطوط بدار الكتب المصرية بالقاهرة
- 43 - فصوص الحكم 1 لابن عربي تحقيق أبو العلاء عفيفي، دار الكتاب العربي، ط2، بيروت لبنان، 1980، ص: 145
- 44 - شرح محاسن المجالس لابن المرأة، مخطوط بمكتبة ميتشيغان بالولايات المتحدة الأمريكية، ق: 2
- 45 - نفسه ق: 4
- 46 - فصوص الحكم 101/1
- 47 - شرح محاسن المجالس ق: 3
- 48 - نفسه ق: 3
- 49 - نفسه ق: 5
- 50 - نفسه ق: 9
- 51 - نفسه ق: 8
- 52 - نفسه ق: 19
- 53 - نفسه ق: 21
- 54 - نفسه ق: 1
- 55 - نفسه ق: 2
- 56 - نفسه ق: 12
- 57 - نفسه ق: 16
- 58 - نفسه ق: 13